

دروس من هدي القرآن الكريم

وانفقوا في سبيل الله

ألقاها السيد / حسين بدر الدين الحوثي

بتاريخ: ٢٠٠٢/٩/٢م

اليمن - صعدة

هذه الدروس نقلت من تسجيل لها في أشرطة كاسيت، وقد أقيمت ممزوجة بمفردات وأساليب من اللهجة المحلية العامية. وحرصاً منا على سهولة الاستفادة منها أخرجناها مكتوبة على هذا النحو. والله الموفق.

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم أيها الإخوة والأبناء ورحمة الله وبركاته.

هنيئاً لكم وبارك لكم حفلكم العظيم بمناسبة انتهاء الدورة، حفل وتكريم للمعلمين أولاً، وتكريم للطلاب، واعتراف بالعرفان لكل من أسهموا بجهودهم في تمويل هذه الدورة المباركة، لكل من أسهموا في إنشاء ذلك المركز الذي ضم هذه النخبة من المعلمين، وضم فلذات أكبادنا من هؤلاء الأبناء الصالحين إن شاء الله. إنها نعمة عظيمة يجب أن نشكر الله سبحانه وتعالى عليها، نعمة الهداية، نعمة الصلاح، نعمة الدين، نعمة الإستقامة، هذه هي النعمة الكبرى التي لأجلها عدّ الله سبحانه وتعالى إرساله لرسوله محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) نعمة امتن بها على عباده، فنحمدك اللهم على هذه النعم العظيمة ونصلي ونسلم على من أرسلته بهذا الذكر العظيم رحمة للعالمين.

نرى في هذا الحفل ثمرة لجهود من يبذلون أموالهم وليعلموا - وهو حديث نكره دائماً في أي مركز نزوره - ليعلم أولئك الذين يسهمون بأموالهم، يسهمون بجهودهم، بالكلمة الطيبة في سبيل إنشاء مثل هذا العمل، مثل هذه المشاريع المباركة، نقول لهم: هذه ثمار جهودكم، هذه ثمار جهودكم، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبلها منكم، وأن ينميها لكم، لتأتوا الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بصحائف مملوءة بالحسنات، مملوءة بالفضيلة، مملوءة بالدرجات التي ترتقون بها في الجنة التي وعدّ بها المتقون، السباقون إلى الخير، السباقون إلى الفضيلة، السباقون إلى العمل الصالح.

إن القرآن الكريم - أيها الإخوة - تحدث، وكله حديث عن الناس، القرآن كله حديث عن الناس، وقسم الناس أقساماً متعددة، ترى بداخله يتحدث عن كافرين، ناس كافرين، ظالمين، فاسقين، منافقين، مرتابين، مرضى القلوب، وعندما تتصفح القرآن الكريم من أوله إلى آخره تجد فيه موقفاً واحداً هو الموقع الذي يحكم الله لمن هو فيه بالفلاح، بالنجاح، بالفوز بالسعادة في الدنيا، بالنجاة يوم البعث يوم الحساب، بالفوز بالجنة، بالنجاة من النار، من هم أولئك؟ هم المؤمنون، يعبر عنهم تارة باسم مؤمنين، وتارة باسم متقين.

وهؤلاء لم يحكم عليهم بهذا الحكم مجرد محاباة، هو يتحدث لماذا كانوا مؤمنين، لماذا هم مفلحون وفائزون لماذا؟ لأنهم هكذا: يعملون الصالحات، سباقون إلى الخير، سباقون إلى كل فضيلة، سباقون إلى الأعمال الصالحة، الآخرين يقول عنهم بأنهم خاسرون {فَمَا رِيحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} (البقرة: من الآية ١٦) يحكم على البشرية كلها، كلها بالخسران، لا يسلم منهم إلا من؟ إلا أولئك المؤمنون {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} (العصر: ٣).

كأنه يقول لنا يقول لكل فرد منا: هذه مواقع متعددة للإنسان في مسيرته في هذه الحياة، هناك من هو في موقع الكفر، في موقع النفاق، في موقع الضيق، في موقع الضلال، وهناك من هو في موقع الإيمان، يقول لنا ثانياً: أولئك الذين هم مؤمنون ليسوا من تلك النوعية التي يرى أنه مؤمن تلقائياً، وهذه كثيرة فينا، [هناك من الناس من يرى] أنه مؤمن تلقائياً، لكن، إنطلق إلى أعمال صالحة، لا يتحرك، وإلى مشروع خيري يحتاج إلى إسهام فيه، لا يمد يده، لدينا فقراء، نحتاج إلى التعاون معهم، لترويجهم، لمعالجتهم، لا يمد يده، لدينا طلاب مجاميع من أبنائنا نريد أن نعلمهم، لا يمد يده، لدينا أعمال لمحاربة أعداء الله تحتاج إلى جهدك إلى مالك، لا يمد يده، وعندما تسأله: هل أنت مؤمن؟ يقول: الحمد لله مؤمن إن شاء الله أننا سندخل الجنة.

القرآن يقول لك، يقول لكل واحد، الإنسان إنما يستحق هذا الاسم، إنما يحكم له بذلك الفوز، وذلك النجاح وذلك الفلاح؛ لأنه هكذا: يسارعون في الخيرات، سباقون إلى الخيرات، يعملون الصالحات، يتواصون بالحق، يتواصون بالصبر {وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} (العصر: ٢) كل إنسان خاسر إلا من؟ إلا الذين آمنوا، من هم الذين آمنوا؟ الذي يتفق هو ونفسه بأنه مؤمن، وينكس رأسه، ولا يحاول أن يلتفت إلى أي عمل صالح ليسهم فيه بماله بلسانه بجهد؟ لا. {إِنَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} (العصر: من الآية ٣) عملوا، عمل {وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} (آل عمران: من الآية ١٣٦) قال الله عن الجنة: {وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} الجنة تحتاج إلى عمل، العمل هو بيدك، بلسانك، بقلمك،

بمالك، بجهدك، وبما هو أرقى من ذلك، بكل مالك، وبروحك، بدمك {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} (التوبة: من الآية ١١١) الجنة التي نحن نُمّتي أنفسنا بها، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن نكون جميعاً من أهلها، الله قال عنها: {وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}.

أريد بهذا القول أن نخرج جميعاً، لا أركي نفسي، لنخرج جميعاً من قضية الحكم التلقائي لنفسي، أو أنت لنفسك، هو مؤمن ولا يريد أن يعمل إلا تلك الأعمال التي تتعلق بشؤون حياته التي من ورائها فلوس، شغل بين أمواله، بيع وشراء، وأشياء من هذه، هذا ليس عمل الجنة، هل تفهمون أن كل الأعمال الصالحة التي يتحدث عنها القرآن الكريم، ليست في الغالب، هي هذه الأعمال التي تتحرك فيها لمصالحنا الخاصة.

فهو عندما يأمر الناس بالإِنْفَاقِ {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} (البقرة: من الآية ١٩٥) هل معنى ذلك أنك تتصرف يوم السوق بخمسة آلاف بستة آلاف؟ تشتري [لحم كثير] تشتري مصاريف كثيرة لبيتك؟ لا، كل إنسان يتحدث عنه القرآن هو عادة، وغالباً ما يكون موجهاً إلى ما هو خارج عن دائرة ومحيط شخصيتك.. في سبيل الله.. مثل هذا العمل، مثل هذه المشاريع التي يتلقى فيها أبناءنا علوم هذا الدين، الذي نحن جميعاً ملزمون به، الذي هو نعمة عظيمة من الله علينا الذي نتوقف عليه نجاتنا ونجاة أهلنا وأبنائنا يتعلمون كتاب الله الذي هو شرف لنا {وَأَنَّهُ لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} (الزخرف: ٤٤).

الإِنْفَاقِ في مثل هذه المشاريع هو واحد من مشاريع سبيل الله التي يقول الله لي ولك: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}.

هذا هو ما أريد أن أقوله في مقدمة الكلمة مباركة لجهود كل من عملوا، وجهود الطلاب أنفسهم الذين كانوا يستمعون باهتمام وإصغاء وإقبال، ويلتزمون ويتأدبون ويتوجهون بتوجيهات أساتذتهم. نقول للجميع: نسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا، وأن يبارك جهودنا جميعاً.

فإن كان لي من كلمة - أيها الإخوة - ترتبط بهذا المقام فإن أعظم الكلام هو كلام الله سبحانه وتعالى الذي جعله الله هدى وشفاء وموعظة ونوراً ورحمة وبصائر، القرآن الكريم في الوقت الذي يتحدث فيه عن الأعمال الصالحة، هو لا يقول فقط كما يقول لك أي شخص عندما تأخذ لك نوعاً معيناً من بضاعة ما وتتحرك به إلى أي سوق من الأسواق فتحصل على كذا وكذا، الأعمال الصالحة من ورائها ماذا؟ من ورائها نجاة من عذاب الله، من ورائها فوز برضوان الله سبحانه وتعالى وجنته.

فما أحوجنا - أيها الإخوة - ما أحوجنا إلى مثقال ذرة من الخير، إلى مثقال ذرة من الأعمال الصالحة تحسب لنا في رصيد أعمالنا يوم نلقى الله سبحانه وتعالى؛ لأننا جميعاً صائرون إلى الله، جميعاً سنغادر هذه الدنيا، سنقدم على الله سبحانه وتعالى.

فمنذ أن يقبل الموت على الإنسان هناك يتذكر يقول: {رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ} (المنافقون: من الآية ١٠) عندما يهجم الموت عليه أولاً وهو فوق فراشه أو في أي مكان في أي بقعة من هذه الدنيا بسرعة، بسرعة يتحسر - وهي أول حسرة - رب لو أنك تمهلني أسبوعاً أسبوعين، يوم أو يومين، وأنا مستعد أن أتصدق وأكن من الصالحين، أليست هذه حسرة؟ ناهيك عن الحسرات يوم الفصل، يوم القيامة، عندما يقدم الإنسان وصحيفته خالية إلا من الأعمال السوداء، إلا من القبائح، إلا من الفضائح، إلا من الكفر بنعم الله، إلا من الصد عن سبيل الله، فيكون من يصيح عندما يؤتى كتابه بشماله، من وراء ظهره، يقول: {يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابِيهِ} (الحاقة: من الآية ٢٥).

تحسر أول حسرة عندما شاهد الموت وعلامات الموت {رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ} هناك ينكشف للإنسان أنه ضيع حياته وضيع عمره، وهناك ينكشف للإنسان أنه شيء واحد فقط الذي كان لو اهتم به ووفره لنفسه لكان مرتاحاً عندما يأتيه الموت، فيرى بشارات النجاة بشارات السعادة، فيقال

له لو عرض عليه أن يعود إلى أهله ويبقى لرفض، عندما يرى بشارات بما وعده الله سبحانه وتعالى به، وهو ما زال فوق فراشه، هناك يرى الإنسان عندما يتحسر أنه فقد الأعمال الصالحة، الأعمال الصالحة.

ولا حظوا هذه الآية التي هي تعبر عن الحسرة التي تواجه الإنسان عندما يرى ملائكة الموت، تحدثت عن الجانب المالي: {فَأَصْدَقَ وَأَكْنَ مِنَ الصَّالِحِينَ} ليقول لنا نحن، تحدثت عن ظاهرة هي فينا جميعاً [أنا مؤمن] لكن لا يمد يده، ليقول لنا هنا أيضاً: لا تتصور، لا تعتقد أنه من الممكن أن تكون مؤمناً صادق الإيمان ولا تعترف بأن المال يشكل المحك الرئيسي في قضية الإيمان، في صدق الإيمان، في صدق العبودية لله سبحانه وتعالى.

إذا أنت تقول لنفسك: أنت مؤمن، أو أقول أنا لنفسي: مؤمن، ولكني لا أبذل مالي، لا أعطي، لا أعطي في سبيل الله، لا أدمع الأعمال الصالحة، لا أدمع المشاريع الخيرة، فلست بمؤمن، لست بمؤمن، ما أكثر ما تحدثت الله عن الجانب المالي في القرآن الكريم، ودليل واضح أن ذلك الميت الذي يتحسر تذكر جانب المال، ظهر له أنه يبدو أن المال كان يعتبر عنصراً مهماً في مسألة النجاة، في مسألة النجاة يوم يلقي الله.

ألم يتذكر هنا: {فَأَصْدَقَ} وهو من كان قبل لا يمد يده إلى جيبه، ولا يخرج ريالاً واحداً في سبيل الله، في دعم الأعمال الصالحة، في دعم المراكز الإسلامية، في العمل على إعلاء كلمة الله؟ تذكر هنا عندما يقول: {فَأَصْدَقَ وَأَكْنَ مِنَ الصَّالِحِينَ} يبدو أن المال كان مهماً، وفعلاً هو مهم.

وسورة بأكملها جاءت في الجانب المالي لوحده.. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ} (البيد:٣١) ثلاثة إيمان، أليست ثلاثة إيمان؟ من الذي يُقَسِّمُ هنا، من الذي يقسم؟ هو الله، لماذا يقسم، أليس هو أصدق القائلين؟ في الواقع إن قضية المال بالنسبة لنا، لو يحلف عشرة إيمان ما يهتز لواحد راس، يؤكد بثلاثة إيمان، وهو أصدق القائلين، وهو من لا يحتاج إلى أن يقسم {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ} أقسم بكل مخلوقاته {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَىٰ} (البيد:٤) عملكم في هذه الدنيا مختلف متنوع، وكل عمل له غاية، وكل سائر على طريق له نهاية، إما إلى الجنة وإما إلى النار {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَىٰ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ} (البيد:٥) أعطى ماذا؟ أليس هذا حديثاً عن المال؟ بعد أن ذكر أن أعمالنا مختلفة، وتحدثت من بداية العمل إلى غايته، ابتداءً في الحديث عن المال {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ} أعطى ماله واتقى الله، أعطى في سبيل الله ابتغاء وجه الله {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ} (البيد:٦).

وما أعجب هذه الآية، عودنا القرآن الكريم أن يقدم دائماً كلمة: {اتَّقُوا اللَّهَ} أليس هذا هو منطق القرآن؟ لكن هنا قدم الجانب المالي على كلمة {وَاتَّقَىٰ} ليكشف لنا أهمية العطاء في تحقيق التقوى، في تحقيق الإيمان، في تحقيق أو الوصول إلى الغاية المهمة، الغاية التي هي فوز وفلاح ونجاة {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ} بجزء الله.

الله يقول لنا في القرآن الكريم: {وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظَلَمُونَ} (الأنفال: من الآية:٦٠) يعطيك الله أكثر مما أعطيت هنا في الدنيا قبل الآخرة {وَأَنْتُمْ لَا تظَلَمُونَ} لا تنقصون مثقال ذرة مما أعطيتكم، بل يضاعف لكم، لكن هل نحن نصدق بهذه الحسنى؟ الحسنى معناها هنا الجزاء المرتبط بالجانب المالي للإنفاق، والجزاء الموعود بالأعمال الصالحة بشكل عام.

الجزاء المرتبط بالجانب المالي مثل قوله تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} (سبا: من الآية:٣٩) كلمة: {فَهُوَ يُخْلِفُهُ} تساوي الحسنى {وَاصْدَقَ بِالْحُسْنَىٰ} الجزاء الحسن {وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ} يوف إليكم: هو الجزاء من جهة الله سبحانه وتعالى بسببه أيضاً، أو هي من مصاديق كلمة: {وَاصْدَقَ بِالْحُسْنَىٰ} هل نحن نصدق بهذه؟ أكثر الناس لا يصدق بهذا وهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى هو ملك السموات والأرض، هو من بيده خزائن السموات والأرض، فهو من يستطيع أن يجفف كل منابع أرزاقنا إذا ما أمسك القطر قطر السماء المطر تتجفف كل منابع أرزاقنا، وتشعب وجوهنا، وتجف جيوبنا، وحتى مطابخنا ومنازلنا وملابسنا، كلها، كلها إلى الأدنى فالأدنى إلى الإنحطاط، إلى الذبول، أليس هذا معروفاً وواضحاً؟

هذا الذي بيده كل شيء لا نكاد نصدق بوعده، لا نكاد نصدق بقوله: { فَهَوَ يُخْلِفُهُ } { يَوْفَا إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظَلَمُونَ } ؛ لهذا الجانب المالي، ليس فقط مرتبط باليوم الآخر، قضية مهمة فيما يتعلق بصدق إيماني بالله. هل الله عندي عظيم؟ هل الله عندي مصدق؟ هل الله محبوب لدي أعطيه ما سألني؟ أقدم من أجله ما يطلب مني؟ فإذا لم أكن على هذا النحو فمعناه أن المائة الريال هي عندي أحب من الله، المائة الريال عندي أعلى من الله، المائة الريال عندي أعظم مما وعدني به الله في هذه الدنيا وفي الآخرة، فحتى إيماني بالله وإيمانك أنت بالله، الجانب المالي يستطيع أن يقضي عليه، يستطيع أن يهزه؛ ولهذا كانت قضية مهمة فقدمها في هذه الآية: { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى } (البيد:٥) ييسر من البداية بعدما قال: أعمالكم مختلفة اتجاهين، بداية الإتجاه هو الإتجاه الإيجابي الذي هو الغاية الحسنة يبدأ بالجانب المالي { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى } (البيد:٦-٥) فماذا؟ { فَسَيَسِّرُهُ لِيُيسِّرَ } (البيد:٧) في الدنيا وفي الآخرة.

ثم يعود من جديد يتحدث عن الطريق الآخر، شتى: مختلف، طريقين، الطريق الأخرى يبدأ أيضاً بالإمساك للمال { وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى } (البيد:٨) بخل وبدا مستغنياً، الله يقول له: أقرضني وسأرد ما تقدمه أضعافاً مضاعفة، [أنا مستغني عن هذه] أنا سأوفر ربح ما تقدمه ولا تظلم مثقال ذرة، [أنا مستغني] يقول لك المرشد الفلاني، الأستاذ الفلاني، العالم الفلاني، الله سبحانه وتعالى وعد بأن يخلف ووعد بأن يضاعف الأجر إلى سبعمئة ضعف، فتصرف ذهنك، تبدو وكأنك مستغنياً عن الله، مستغنياً عن الحسنات التي تحتاجها يوم القيامة، مستغنياً عما فيه سعادتك في الدنيا، وعما يترتب عليه نجاتك في الآخرة، تبدو مستغنياً، [أنا ما عندي أولاد أدرسهم]، بعض الناس يقول هكذا. عندنا مدرسة تحتاج إلى مساهمة، عندنا مشروع خيري يحتاج إلى مال.. [أنا ما عندي أولاد يجينوا فيها الذين معهم أولاد]، بعض الناس يقول هكذا.

إذا ما رأيت نفسك دائماً تبدو وكأنك مستغنياً عندما يحدثك الناس، عندما يدعوك أحد إلى أن تقدم من مالك فتبخل وتظهر مستغنياً، فانظر ما هي النهاية المرسومة لك { وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى } (البيد:٩-٨) بالجزء الحسن فماذا؟ { فَسَيَسِّرُهُ لِيُيسِّرَ } (البيد:١٠) في الدنيا وفي الآخرة.

ولو يراقب الإنسان الناس لوجدت كثيراً ممن يبخلون بمبالغ بسيطة يبذلون أضعافاً مضاعفة في مجالات أخرى، مصيبة تأتي له، غريم يقيم له، سيارة تقتلب عليه، رياح عاصفة تحطم عليه المون برد [يهل البن حقه]، الله سبحانه وتعالى يريد أن نفهم بأنه رقيب علينا ويعلم بذوات صدورنا، ولا يمكن لأحد أن يقدم نفسه ذكياً أمام الله، الله سيخرج ما بخلت به أضعافاً مضاعفة في غير طريقه، في غير محله وبالأعلى عليك، العسرى في الدنيا وفي الآخرة { فَسَيَسِّرُهُ لِيُيسِّرَ } وفي الأخير ماذا؟ هذا الذي بدا مستغنياً وكأنه ليس بحاجة إلى الحسنات، ليس بحاجة إلى ما يقربه إلى الله، ليس بحاجة إلى ما وعد الله به أوليائه من تعظيم في الدنيا ليس بحاجة إلى المردود الإيجابي من المشاريع الخيرية ماذا؟ { وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى } (البيد:١١).

حتى لم يأت القرآن الكريم بعبارة محترمة في الحديث عن هذه النوعية من الناس، { تَرَدَّى } [تقلع]، عندما يموت، لم يقل: وما يغني عنه ماله إذا مات، تبدو كلمة مات لا تزال مؤدبة محترمة، يعتبر هذا كالحمار الذي يتقلع مثل الثور الذي يتقلع { تَرَدَّى } [تقلع] وهوى، عندما يكون مصيرك إلى هلكة، إلى هاوية يقال تردي { وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى } عندما يهجم عليه الموت فهو في بداية السقوط إلى قعر جهنم { وَمَا يُغْنِي } لا يستطيع أن يدفع عنه { ماله } هذا الذي بخل به، والذي بدا مستغنياً من أجل حرصه عليه، لا يغني عنه، لا يدفع عنه، لا يجزي عنه ولو كان مثل الأرض كله ذهباً.

قد يدفع عنك غضب الله في هذه الدنيا مبلغ بسيط من المال، قد يكتب الله لك النجاة بمبلغ بسيط من المال، قد تشتري نفسك وتنجي نفسك وترد نفسك من على سفير جهنم بمبلغ من المال تقدمه في سبيل الله، وأنت لا تزال هنا في الدنيا، لكن في الآخرة لو كنت تمتلك الدنيا كلها ذهباً لما قبل منك، ولا أمكن أن يغني عنك، ولا أن يدفع ما أنت صائر إليه، وهم يسوقونك إلى أبواب جهنم.

لهذا ينبغي على الإنسان أن يتأمل ويتفهم مثل هذه السورة ناهيك عن غيرها من الآيات، ثم يقول الله ماذا بعد هذه { إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ } (البيد: ١٢) أنا غني عنكم، وكأنه يقول لنا ولكن من أجلكم أنتم؛ لأنه يعلم أن الواحد منا يوم القيامة سيتمنى أن لو الأرض بكلها ذهب فيقدمها لله فدية لينقذ نفسه، الله يقول لنا ونحن في الدنيا - فهو رحيم بنا - أنقذوا أنفسكم، أنا عندما أقول لكم - حتى بمنطق يبدو منطوق عاطفي جداً ومثير للعاطفة { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا } (البقرة: من الآية ٢٤٥) هو عندما يقول وأنت في هذه الدنيا: { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً } (البقرة: من الآية ٢٤٥) [ما بدك تهب لنا قرضة؟ من هو الذي سيركن على الله يعطيه قرضة؟ القليل من الناس، والكثير من الناس لا يركن على الله مثلما يركن على أطرف واحد من أصحابه، لكن هذا الذي يقترض منك في الدنيا هو من ستراه يوم القيامة بشكل آخر لو كنت تمتلك الأرض كلها ذهباً لما قبلها منك، وسأقتك ملائكته وأنت مغلول بالسلاسل إلى قعر جهنم، هو غني { إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى } (البيد: ١٥).

الشقي [لا يسمع ولا يوحى]، هذا عمل صالح، وكأنه لا يعنيه، الآخرون هم فقط المكلفون بالأعمال الصالحة، هم المعنيون بأن يتحركوا في مجال الأعمال الصالحة، هو لا يعنيه، هذا مشروع خيري، أعطي فيه.. [ما عندي أولاد يتعلموا، مالي حاجة] هذا مشروع صحي، ساهم فيه.. [أنا عندي سيارة ومعني فلوس، إذا مرضت زوجتي أو ابني سأسعه إلى المستشفى..] يبدو مستغنياً.

{ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى } (البيد: ١٦-١٧) دائماً قد يكون الإنسان مكذباً سواء بصريح العبارة أو مكذباً بموقفه من مثل هذه الآية، يبدو بمظهر المكذب، يبدو بموقفه موقف المكذب يحكم عليه بأنه فعلاً مكذب.

{ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيَجْزِيهَا الشَّقِيُّ } (البيد: ١٧) يجنب هذه النار التي تتلهب، الإنسان إذا أراد أن يعرف النار الله سبحانه وتعالى قد جعل هذه النار التي توعدها الأشقياء توعدها بها العصاة توعدها بالمجرمين هي نار نعرف جنسها، وارتبطت حياتنا بها في هذه الدنيا، ليس هناك بيت إلا وفيه نار، حاول أن تطل بوجهك على التنور التي تشتغل في بيتك كل يوم ثلاث أربع مرات، انظر لو قالوا أن تسلم كل ما تمتلك أو ينزلوك في هذه التنور الصغير، جمر حطب التهابه قد لا يصل إلى مائتين درجة، لا أعتقد أن الإنسان يستطيع أن يصبر أن يدخله في هذه التنور، النار هذه التي أماننا نعتبرها عبدة.

هو يتحدث عن نار جهنم نار أخرى تلتظي، تتلهب، تتوقد، تكاد تميز من الغيظ، لها زفير وشهيق، هذه النار { لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيَجْزِيهَا الشَّقِيُّ } (البيد: ١٧) الذي دائماً يعيش مشاعر التقوى، دائم الخوف من الله، دائماً يعمل كل ما يقية من عذاب الله، كل ما يقية من سخط الله، كل ما يقية من غضب الله ومقته، هذا هو التقى، والتقى هو من نفسه يقظة، من مشاعره يقظة كلها مليئة بالخوف من الله سبحانه وتعالى بالخشية لله سبحانه وتعالى { وَسَيَجْزِيهَا الشَّقِيُّ }.

ثم يأتي ليتحدث عن المال من جديد { الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى } (الشمس: ١٨) من أجل أن يتزكى يزكي نفسه أمام الله يطهرها يجعلها روحاً سامية ظاهرة تسمى تتكامل { الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى } وعندما يؤتي ماله هذه قضية أخرى، لو توتى كما توتى وأنت لا توتى لله، ولا ابتغاء وجه الله، وإنما من أجل أن يقولوا: فلان، أو من أجل أن يكون المشروع الفلاني في قبضة يدك، أو أن تكون أنت من تهيمن على أساتذة المدرسة الفلانية، أو على مدير المشروع الفلاني، ليكون الشيء في قبضتك، أو تكون أنت المهيم على، أو أي اعتبارات أخرى لا قيمة لها، لا قيمة لها، وعندما تعطي من أجل الله، وابتغاء وجه الله فسيكون كثيراً ما تقدمه وسينميه الله وسيعتبره شيئاً كثيراً لك.

{ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَى } (البيد: ١٩) أنا لا أعطي من أجل أن يكافئني آخر، أنا لا أعطيه بمجرد المكافأة على إحسان قدمه إلي، هذا شيء آخر، وهو من الأعمال الصالحة أيضاً، هو من الأعمال

الصالحة أن تكافئ على الإحسان الذي قدم إليك، لكن هنا فيما يتعلق بجانب المال الذي يقدمه الإنسان ويكون له أثره الكبير في تربية نفسه، في تجنيب نفسه من هذه النار التي تتلظى، هو من يعطي ماله {وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى} (الليل: ١٩-٢١).

من أجل الله، كان في أيام رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) يوم كان القرآن ينزل كان هناك أشخاص يعطون مبالغ كبيرة من المال، لكن يأتي ليقول: ربما، عسى تنزل في آية تذكرني وتذكر ما قدمت، ولم تنزل فيهم آية واحدة، وعندما قدم الإمام علي (عليه السلام) وفاطمة الزهراء قدموا أقراصاً من الشعر لمسكين ويتيم وأسير وبهذه الروحية: ابتغاء وجه الله، ومن أجل الله، سطره الله في القرآن الكريم في سورة كاملة؛ لأنه هكذا كان لسان حالهم {إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا} (الإنسان: ٩-١٠).

فكانت الثلاثة الأقراص الشعر هذه هي ما جعلت تلك الصدقة تخلد وتثلى قرآناً، مرتلة فيهم في مختلف الأقطار وجيلاً بعد جيل إلى نهاية أيام الدنيا، وهناك أشخاص أعطوا كميات أخرى من المال لكن من أجل أن يقال وليس حتى من أجل أن يقول الآخرون، بل من يريد من أجل أن يقول الله له شيئاً وينزل آية في القرآن تذكر له ما قدم فيدخل التاريخ كما يقولون، لا. الله سبحانه وتعالى يريد الإنسان إذا أنفق ينفق بهذه الروحية وبهذه المشاعر، ونحن كما قلت سابقاً بحاجة إلى كل عمل صالح بحاجة إلى كل ذرة من عمل صالح ترصد لنا عند الله سبحانه وتعالى لنفوز بها قسهم في نجاتنا، نحن قادمون على يوم الفصل.

الكلمة التي أريدها وباختصار هي الحديث عن اليوم الآخر لنقول لأنفسنا في مثل هذا العمل مثل هذه الدورة مثل هذا التدريس مثل هذه الجهود التي تبذل من قبل المدرسين مثل هذه الجهود التي تبذل من جهة المتعاونين نحن كلنا يجب أن نقدمها من أجل يوم الفصل، أن نقدم على الله ونحن آمنون في يوم الفصل في يوم القيامة، الله سبحانه وتعالى يقول عن القيامة: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا} (الأنبياء: ١٧) فما أكثر ما تكرر في القرآن الحديث عن اليوم الآخر يوم القيامة، يوم الحشر، يوم الفصل، يوماً عبوساً قمطريراً، في ألفاظ مختلفة وألقاب متعددة.

{إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا} موعداً لا بد أن يأتي، مؤقت، محدد، يوم الفصل بين الخلائق، يوم الفصل بين المختلفين، يوم الفصل بين من يعتبرون أنفسهم هنا في الدنيا أذكيا فينطلقون للصد عن سبيل الله ويسخرون من أولياء الله ويسخرون من المؤمنين يحتقرونهم، يحتقرون جهودهم، ومشاريعهم، ويسمونهم بالتغفل، ويسمونهم بالغباء.

يوم الفصل سيتجلى من هو الذكي ويتجلى من هو الخاسر ومن هو الرابع، يفصل بيني وبين هذا، يفصل بين الخلائق كأمم، ويفصل بين الشعوب كطوائف، ويفصل بين القبيلة الواحدة وبين الأسرة الواحدة وبين الأشخاص، بين الإثنين وبين الجماعات وبين الشعوب وبين الأمم، في كل ما كانوا فيه يختلفون، في كل ما كانوا فيه هنا في الدنيا يتميزون من أجله، يتشاجرون، يتبين يوم القيامة من هو الرابع ومن هو الناجي، من الذي كان تقياً في هذه الدنيا حقيقة ومن هو الخاسر ومن هو الغبي، ذلك الذي سيصرخ {لَمْ حَسْرَتْنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا}

(طه: ١٢٥).

الأذكيا هنا في الدنيا يعتبرون أنفسهم أذكيا يعتبر نفسه ذكيا أنه استطاع أن يحسن علاقته مع مسؤول معين، أصبح مقرباً من المسؤول الفلاني، وأصبح وجيها وأصبح له نفوذ، وعلى حساب دينه على حساب إخوانه على حساب وطنه، فيعتبر نفسه ذكياً وأولئك أغبياء ما استطاعوا مثلي [يكونوا بؤسار يحسنوا علاقتهم فيصبحوا أشخاص لهم نفوذهم ويمكن تدعمهم الجهات الثانية، ويمكن يحصل لهم، ويمكن، ويمكن].

المسألة هي أنه يجب أن يكون ذكاًوك على هذا النحو تقدم على الله وأنت بصير لا تقدم عليه أعمى {رَبِّ لِمَ حَسْرَتْنِي أَعْمَى} ما دريت لي بمخرج في هذا اليوم وأنا كنت في الدنيا أرى نفسي بصيراً ذكياً {قَالَ كَذَلِكَ} (طه: من الآية ١٢٦) هكذا واقعك {أَتَتَكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} (طه: من الآية ١٢٦) فتكون أعمى لا تعرف لنفسك

مخرجاً، وإن كنت في الدنيا ترى نفسك ذكياً وعبقرياً، هذا هو الغباء، كل شيء تبذل من أجله دينك فأنت غبي، كل شيء تبذل من أجله دينك فستلقى الله خاسراً أعمى وإن كنت في هذه الدنيا ترى نفسك ذكياً وعبقرياً {إِنَّ يَوْمَ الْفِصْلِ كَانَ مِيقَاتًا يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ قَتَاتُونَ أَفْوَاجًا} (النبا: ١٨-١٧).

رغمًا عنكم رغمًا عنا نبعث من قبورنا، نساق أفواجاً أفواجاً إلى ساحة الحشر، قَتَاتُونَ أَفْوَاجًا {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ} البعض من الناس يقول الصور هو آلة ينفخ فيها ملك من ملائكة الله بصوت قوي جداً، في النفخة الأولى يموت الخلائق المتبقون في هذه الدنيا، وفي النفخة الآخرة يبعث الجميع يبعث الجميع قَتَاتُونَ أَفْوَاجًا {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ قَتَاتُونَ أَفْوَاجًا وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا} (النبا: ١٩).

يتحدث عن أهوال هذا اليوم، يقول للإنسان ارجع إلى نفسك ألسنت ترى نفسك عندما تأتي رعشة، عندما يأتي كسوف، عندما تأتي عواصف شديدة، عندما يأتي مطر غزير جداً، أليس يحصل عند الإنسان خوف خاصة عندما تأتي هزات أو زلازل؟ يحصل خوف عند الإنسان {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} (الزلزلة: ٢).

يتحدث الله عن زلزلة شديدة جداً، يتحدث عن أهوال القيامة، عن مظاهر مرعبة في ذلك اليوم، يقول للإنسان إنك عندما ترى أول مظهر من هذه المظاهر فإنك من ستستحضر في نفس اللحظة ما ستقدم عليه فيمكن أن تقول أو يقول الجميع {يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَقَرُّ} (القيامة: ١٠).

عندما تأتي الزلازل، عندما تجتمع الشمس والقمر، عندما [يتخربط] كل نظام هذا الكون {يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَقَرُّ أَيْنَ الْمَضْرُكُ لَا وَرَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ يَتَّبِعُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} (القيامة: ١٢). هكذا قضية النفخ في الصور يذكرك بأنه يوم أهواله شديدة، ومن عادة الإنسان في حالة الأهوال الشديدة يراجع حساباته وينظر إلى المصير ما الذي سيقدم عليه؟ {وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا} (النبا: ١٩).

تتشقق السماء تنفطر السماء {وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا} (النبا: ٢٠) تحول كالسراب، هذا هو يوم القيامة، مظاهر يوم الفصل، يوم الفصل ماذا وراعه؟ هل من وراء يوم الفصل عندما يظهر لنا أنه كان ظلم فلاناً أو اعتدى على فلان [نسير نحن وفلان نأخذ تببيع ونسير نقصد فلان أو نعط جيهاننا عنده والملائكة تقصده على طيبة نفسه وانتهى الموضوع؟] لا. وراعه جهنم وراعه الجزاء {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا} (النبا: ٢١).

فصل بعده جزاء، بعده إما جنة أو نار {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا} مرصودة معدة {لِلظَّالِمِينَ مَا بَأْسَ} (النبا: ٢٢). للمتجاوزين لحدود الله للرافضين لما يريد الله منهم، لما يطلب الله منهم {لِلظَّالِمِينَ مَا بَأْسَ لَا يَشِينُ فِيهَا أَحْقَابًا} (النبا: ٢٣).

على الرغم من أنها عذاب شديد، خلود لا أحد يخرج منها {أَحْقَابًا} حقب متتابعة دهور متتابعة لا نهاية لها {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا} (النبا: ٢٤) نفحة من نسيم بارد أو شربة باردة في هذه الحقب المتتابعة آلاف السنين ملايين السنين لا يذوق شربة باردة، لا يحس بنفحة نسيم باردة {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَافًا} (النبا: ٢٥).

متى ما التهب العطش كلما أضرب به العطش الله حكى عن أهل جهنم {فَسَارِيُونَ شَرِبَ الْهَيْمِ} (الواقعة: ٥٥). عطش شديد ماذا يشرب؟ يشرب حميماً ماء حميماً يلتهب، يقطع أمعاه {وَسَقُوا مَاءَ حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} (محمد: ١٥).

من الآية ١٥ {وَعَسَافًا} (النبا: من الآية ٢٥) يقال عن الغساق إنه صديد أهل جهنم، صديد أهل جهنم: القحيح [والمدة] في لغتنا، شديد الحرارة متسخ الذي يسيل من أجساد أهل النار، هو شراب المجرم يوم القيامة هو شراب المجرم في جهنم {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَافًا جَزَاءً وَفَاقًا} (النبا: ٢٦).

هو الجزاء الذي تستحقونه لماذا؟ {إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا} (النبا: ٢٧).

كانوا في هذه الدنيا لا يفكرون في الآخرة لا يحسبون حساب الآخرة {وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا} (النبا: ٢٨).
كلما تأتي آية قرآنية لا يصدقون بها، كلما جاء وعد إلهي لا يؤمنون به {وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا وَكُلَّ شَيْءٍ
أَخْصَيْنَاهُ كِتَابًا فُذِّقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا} (النبا: ٣٠).

هذه جهنم التي من أجل أن ننجي أنفسنا منها الله يقول لنا في القرآن يرسم لنا في القرآن طريق النجاة منها
ويحثنا حثاً بليغاً على ما ينجينا منها، فمن هذا العمل - إن شاء الله - جهود من يبذلون جهودهم فيه - إن شاء الله -
أن تكون مما ينجيهم يوم يقدمون على الله يوم الفصل.

القرآن الكريم هو بصائر للناس، بصائر حتى فيما يتعلق بالدنيا، وإذا لم تستبصر من القرآن فيما يتعلق بشؤون
الدنيا أيضاً ستعمى فيما يتعلق بشؤون الدين؛ لأن الدين كل قضية في الدنيا هي مرتبطة بالدين، وهي هنا في
القرآن الكريم لو تأملناه بعد أن قال: {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ} (البصائر: من الآية ٢٠) يتحدث بما يعطينا وعياً؛ لنقيم به
الناس، لنقيم به الطوائف، لنقيم به الأحزاب، لنقيم به الأشخاص، لنقيم به أيضاً أنفسنا، أعطانا بصائر
كثيرة، الله يقول لنا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} (التوبة: ١١٩).

أليست هذه من البصائر؟ {اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} يقول أيضاً لرسوله (صلوات الله عليه وعلى آله)
وهو خطاب له وبغيره من الناس {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} {وَلَا تُطِعْ كُلَّ
حَلَفٍ مَّهْيَنٍ هَمَّازٍ مَّسَاءٍ بِنَمِيمٍ مَّنَاعٍ لِنَخِيرٍ مَعْتَدٍ آثِيمٍ} (النجم: ١٢).

أليس القرآن هنا يتحدث عن أشخاص ويتحدث عن فئات بصفاتهم يقيمهم لنا؛ لأننا بحاجة إلى بصيرة أمام
بعضنا بعض حتى لا نكون في حالة عمى فتدخل في موقف تدخل في ولايات مغلوبة، فتدخل في مواقف باطلة،
تحسب عليك يوم القيامة عمى في يوم القيامة أيضاً، تحسب عليك وبالاً، وخسارة يوم تقدم على الله سبحانه
وتعالى.

[الله أكبر / الموت لأمریکا / الموت لإسرائيل / اللعنة على اليهود / النصر للإسلام]

ألقيت هذه الكلمة

بمدرسة أهل البيت، بني جرج - الرويس

بتاريخ: ٢٠٠٢/٩/٢م

تم هذا الإخراج الجديد

بإشراف

يجيى قاسم أبو عواضة

بتاريخ ١٠/ رمضان ١٤٢١ هـ

الموافق ٢٠ / ٨ / ٢٠١٠م